الأدب

في

العصر المملوكي

برغم أن العصرَ المملوكي كان عصر صراعات إلا أن الحركة الأدبية في العصر المملوكي ازدهرت ازدهاراً كبيراً.

ففي العصر المملوكي كان السلاطين والأمراء وكبار الجاه يرون تقريب العلماء والشعراء مظهراً من مظاهر الشرف والنبل. فكانت منازلهم وقصورهم موئلاً للأدباء والشعراء.

لذلك ونتيجة لهذا التشجيع برز على الساحة الأدبية آنذاك تأليف الموسوعات في شتى فروع العلم والمعرفة : الأدبية منها والسياسية والتاريخية والاجتماعية والإنسانية.

وترجع الريادة في هذه الموسوعات إلى شهاب الدين النويري، صاحب الموسوعة الشهيرة (نهاية الأرب في فنون الأدب) والتي علا قدرها وارتفع شأنها وذاع صيتها حتى ترجمت للغة اللاتينية منذ القرن الثامن عشر.

كما أن ابن دانيال، الأديب والطبيب القبطي، كان من أشهر أدباء مصر في العصر المملوكي ، وهو صاحب أول محاولة لمسرحيات خيال الظل في العصور الوسطى. حيث جمعت مثل هذه المسرحيات بين الشعر والنثر الفني.

وازدهر النثر الفني والشعر، حيث تم الاحتياج إلى الكتاب في ديوان الإنشاء، ويرع في ذلك الأديب بن عبد الظاهر، حيث عينه بيبرس كاتباً للسر بديوان الإنشاء.

كما ازدهرت المناظرات الأدبية والشعرية المختلفة، ومن أشهر شعراء العصر المملوكي :

- ابن الجزار
- وابن الوراق
- والمناوي المصري.

- واشتهر الصلاح الصفدي بتاليف الموشحات في العصر المملوكي.

ويعكس شعر العصر المملوكي كافة جوانب المجتمع المملوكي السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية المختلفة .

اللغة في العصر المملوكي :

عندما جُلب المماليك إلَى البلاد العربية ، واتوا إليها أطفالاً ويافعيْن تعلموا من العربية – العامية – ما يُيسّرُ لهم أداء واجباتِهم (الدينية خصوصاً) وغالباً ما استُخدموا مُترجميْنَ لَهم، وكان لِجهلهم دورٌ في لجوء الأدباء إلَى العامية وابتعاد الشعراء عن البلاط. لذا كان الشعراء المحترفون قلةً، وتراجعتِ اللغة العربية على صعيد الاستخدام الأدبي لمخالطة اللغات الأعجمية لها.

الشعر :

توارى الشعر في هذا العصر ولم يعد له بريقه الذي كان عليه في العصر العباسي وطغت عليه التقليدية والاهتمام بالمناسبات وما تحمل من فتور في التجريه لما في المناسبات من مجاملات ومبالغة . فارتبط الشعر ارتباطاً وثيقاً بالمناسبات التاريخية وآثار مصر في العصر المملوكي.

- فقد مُدح السلطان بيبرس البندقداري عند افتتاح المدرسة الظاهرية .
- ومُدح السلطان برقوق شعراً عندما تم افتتاح مدرسته في بين القصرين.
- وقال ابن إياس شعراً في السلطان الغوري بعد فراغه من بناء مصطبة وان لم يخل الشعر حول الغوري من هجاء.
- وعندما سقطت إحدى منارات مسجد السلطان حسن (٧٦٢ هـ / ١٣٦١ م) واعتبر الناس ذلك نذيراً بزوال الدولة، حتى سارع الشاعر بهاء

الدين السبكي ليجعل من ذلك بشير سعد للسلطان والدولة إذا ما سقطت المئذنة إلا إجلالاً للقرآن الذي يقرأ تحتها.

أمّا البلاط فلم يعدِ الشعراء يتكسبونَ من الشعر، لعدم فهم الحكّام الشعر فأُغلق الباب في وجههم، وكانَ الأعيان الأغنياء كذلك، فانكفأ الشعراء على أنفسهم، وامتهنوا المهن والحرف . فكان منهم:

- الكحّال.
- والجزّار.
- والورّاق.
- والنجار وغيْر ذلك.

وأضحى الأدب هواية يُمارسونها أحياناً، فأنتجتْ أدباً مختلفاً عن العصور السابقة، فلم يعد في قصائدهمُ المقدمة الطللية والنسيبُ مثلاً، وكثُرتِ المقطعات لأنّها استجابةٌ لدفقةٍ شعوريّةٍ سريعةٍ، وكان الشاعر يضع نصب عينيهِ المتلقّي الجاهل لقلة الثقافة حتّى ولو كان المتلقّي وزيراً، ولذا شاع في شعرهم السهولة والوضوح وامتزاج العامية بالفصحى، وانتشرت الصنعةُ والمبالغةُ والتكلُّفُ، وبالغوا فيها لمحاولة مجاراة الأقدميْن، فاستخدموا كل المحسنات البديعية والصنعة البيانية، وصارت الألفاظ قريبةً من العامة، واستمرتِ الأجناسُ الأدبيةُ السابقة كالغزل والمدح (الذي قلّ لعدم وجود الحكّام العرب) والرثاء وغيْر ذلك.

كان الشعراءُ المحترفونَ قلةً حينها، فلم يعودوا يتكسبونَ بالشِّعْرِ لعدم فهْمِ الحكّامِ والنبلاءِ (الأغنياءِ – الأعيانِ) الشعرَ، فأُغلقَ البابُ أمام الشعراءِ، وأوّل من أحسَّ بهذا التغييْرِ الشعراء الذيْنَ استشعرُوا أنهمْ محاصرونَ فالبلاطُ مغلقٌ في

وجوههم لكونِ الحاكمِ غريباً لا يفهمُ العربيّةَ فلا يَهتزّ للمدحِ ويُغدقُ العطايا. كما وجدوا الجمهورَ جاهلاً غارقاً في الأميّةِ، فتقوقعُوا وصاروا يكتبونَ شعرَهم في مناسباتٍ كهوايةٍ، ويكرّرونَ أنفسَهمْ في الأغراض التقليدية بما حفظوهُ من التُراثِ، وحاولُوا تفسيرَ قصور إنتاجِهمُ الأدبيِّ عند مقارنتهِ بأدبِ الازدهارِ، وكانوا مقتنعيْنَ بما نسميّهِ الدوافعَ والأسباب. وهذا الدافعُ إمّا خارجِيٌّ وإمّا داخلِيٌّ. قال أحد الشعراء:

أنـــا فـــي جيـــل خســـيس وقبيـــــــل وزمـــــــان

أمـــــدح الســـــلطان كـــــي يصـــبح مـــالي فـــي أمـــان

أكـــذا كـــان أبـــو تمـــام قبلـــــي وابـــــن هـــــاني؟

فيلقي باللائِمةِ على أبناءِ عصرهِ، ويَمدحُ السلطان ولَمْ يَجِدْ كأبي تمّامٍ وابنِ هانِئٍ من يتبنّاهُ ويُغدقُ عليهِ العطاءَ. فيمدحهُ خوفاً على مالهِ وحسب.

شاعَ حينذاكَ ما يُسمّى بالمصادرةِ، حيثُ يأمرُ السلطانُ بأخذِ أموال الناسِ وتجريدِهمْ منها، كما كانَ الْمُصادَرُ يُعذّبُ بما خبّأهُ من أموالٍ عن عيونِ السلطانِ، وكانتِ المصادرةُ تشملُ العوامّ والشعراء والأمراء وأصحاب المناصب، يقولُ أحد الشعراءِ:

لمن أبوح بشعري حـين أنظمـه أم من أخص بما فيه من الزبـد

إما جهول فـلا يـدري مواقعـه أو فاضل فهو لا يخلو من الحسد

فعامةُ الناسِ جاهلةٌ لا تعرفُ قيمة الشعرِ، وَالعارفُ بهِ يقف ضد الشعرِ حسداً، فلا يَجدُ من يَفهمُهُ ففضّلَ السكوتَ.

وتكلّمَ آخرونَ عن نظريّةِ الدوافعِ والأسبابِ، فلا ثوابَ على المدحِ ولا اعتذارٌ فماتتْ موهبتُهمْ لعدمِ وجود الأسباب، يقولُ السرّاجُ الورّاقُ:

وكان الناس إن مـدحوا أثـابوا ... وللكرمـاء بالمـدح افتخـار

وكان العذر مـن وقـت لوقـت ... قصرنا لا عطـاء ولا اعتـذار

لذلك توارى الشعرُ وأصبحَ هوايةً ، وصارَ لكلِّ شاعرٍ مهنةً :

- فالسرّاجُ الورّاقُ كان ينسخُ الكتبِ .
- والبوصيْري افتتحَ كتّاباً لتعليْمِ الصبيانِ .
- وأبو الحسيْنِ الجرّار كانتْ مهنتهُ الجزارةَ وبيّنَ أنّهُ بعملهِ الجديد أصبحتِ الكلابُ ترجوهُ لتأكلَ، بينما كان بالشعرِ يقصدُ الكلابَ وهي توريةٌ للأغنياءِ، فيقولُ:

لا تلمنـي سـيدي شـرف ... الدين إذا مـا رأيتنـي قصـابا

كيـف لا أشـكر الجـزارة ... ما عشت حفاظا وأرفض الآدابـا

وبها أضحت الكـلاب ترجـوني ... وبالشعر كنـت أرجـو الكلابـا

لقدْ صارتِ الأفهامُ جامدةً، والقرائحُ خامدةً .

وحرق الشعراءُ قواعد القصيدةِ التقليديّةِ على عدّةِ مستوياتٍ هيكل القصيدةِ، والمعجم اللغوي، والموضوعات. فالبوصيْري صاحب المدائح النبويّةِ كانَ فقيْراً اشتغلَ مدرساً في مجلسِ أقامهُ، ثُمّ عرض عليهِ صديقٌ وظيفة الحسبة وهي دينيّةٌ فرفضها لأنّهُ لا يفهمُ فيها ولا يريدُ دخول عالمِ الفسادِ فقال:

لا تظلموني وتظلموا الحسبة ... فليس بيني وبينها نسبة

غيري في البيع والشرا درب ... وليس في الحالتين لي دربة

ما سوى حرفة الكتابة لي ... من وطر أبتغي ولا إربة

والشعر ميزانه أقومه ... وليس تنقام منه لي حدبة

خروج عن القواعد الشعريّةِ. وخليط من العامي والفصيح. وتدنى المعجمُ اللفظيُ كثيْراً فخلطهُ بالألفاظِ العاميّةِ ليوصلَ كلامه لكلّ الناسِ فالمقامُ يقتضي ذلكَ، كما استخدمَ التراكيبَ العاميّةَ بألفاظٍ فصيحةٍ مثل (فليسَ بيني وبينها نسبةٌ). ولَمْ تكنْ قصائِدهُمْ مقطعاتٍ فقطْ بل هناك قصائد طويلةٌ، كقصيدة البوصيْري عشيةَ العيدِ ولَمْ يكنْ لأولادهِ ثيابٌ وطعامٌ فقصدَ أحد المتنفذيْنَ قائلاً:

إليكَ نَشْكُو حالَنا إنّنا ... عائلةٌ في غايةِ الكَثْرَةْ

أحَدّثُ المَولَى الحَديثَ الّذي ... جرَى عليهم بالخيطِ والإبْرَةْ

صَاموا مَعَ النّاسِ ولكنّهمْ ... كانوا لِمَنْ يُبصِرُهم عِبْرَةْ

إن شَرِبُوا فالبِئْرُ زِيرٌ لهُمْ ... ما بَرِحَتْ والشّرْبَةَ الجَرّةْ

لهُـــمْ مِـــنَ الخُبْزِ مَسْـــلوقةٌ في كـــلِّ يَـــوْمٍ تُشْـــبِهُ النَّشْـــرَهْ

أَقُـــول مَهمـــا اجتمعـــوا حَوْلَهـــا تَنَزَّهُوا فـــي المـــاءِ والخُضْـــرَهْ

وأقبـــلَ العيـــدُ ومـــا عنـــدهم قَمْـــحٌ ولا خُبْـــزٌ ولا فطْـــرَهْ

ويتحدث ابن الوراق عن فقره ولباسه (الجبة) وهي لباس خشن . وأنه ظل يقلبها ظهرا لبطن حتى بليت . كما يشير إلى النفاق في عصره فيقول :

هذا وجوخَتي للزرقـــاء تحســـبها من نسج داود في ســـرد وإتقـــان

قلبتُهـــا فعـــدت إذ ذاك قائلـــة سبحان قلبي بلى قلبي وأبلانـــي

إن النفاق لشيء لســـت أعرفـــه فكيف يطلب مني الآن وجهـــان

وهذا ابن دانيال يصف بيته وما فيه من فاقة وأثاث متهالك يقول :

أصبحت أفقر من يروح ويغتدي ما في يدي من فاقـــة إلا يـــدي

في منزل لم يحو غيـــري قاعـــدا فإذا رقدت رقدت غيـــر ممـــدد

لم يبق فيه سوى رسوم حصـــيرة ومخـــدة كانـــت لأم المهتـــدي

ملقى على طراحة فـــي حشـــوها قمـــل كمثـــل السمســـم المتبـــدد

والفأر يركض كالخيول تســـابقت من كل جرداء الأديـــم وأجـــرد

هذا ولـــي ثـــوب تـــراه مرقعـــا من كل لون مثل ريـــش الهدهـــد

ويسف ابن الجزار حماره قائلا :

هذا حمار فـــي الحميـــر حمـــار في كـــل خطـــو كبـــوة وعثـــار

قنطار تبن فـــي حشـــاه شـــعيرة وشـــعيرة فـــي ظهـــره قنطـــار

النثر وفن الكتابة :

كـان النثـر في العصـر المملـوكي علـى قسـمين: مسـجوع (مقيـد) ومرسـل (مطلق)، وقد يُنسبُ التكلفُ والتصنّعُ إلى العصر المملوكي، وهذا ظلمٌ فقد ظهر قبل ذلكَ بوقتٍ طويلٍ في كتابات المعري كرسالة الغفران، وبلغت قمة التصنع في مقامات بديع الزمان الهمذاني وتابعه الحريري في مطلع القرن السادس الهجري وهذه المقاماتُ أشدُ تكلفاً مما نعرفه من النثر في العصر المملوكي.

أسلوب القاضي الفاضل: كان كاتبَ ديوانِ الإنشاءِ عند صلاح الدين الأيوبي، وكان أسلوبه في الكتابة هو أسلوب العصر خاصةً الكتابة الديوانية (دواوين الدولة)، ويتسمُ بالتصنّعِ باستخدام التورية وأنواع البديع الأُخرى، وأثر في كتّاب عصره كثيْراً في طريقته وأسلوبه، وكان له تلامذةٌ أشهرهم:

١- العماد الأصفهاني أو الكاتب (ت٥٩٧هـ)

٢- ضياء الدين بن الأثيْر الجزري (ت٦٣٧هـ)

البلاغة في العصر المملوكي:

كانتِ البلاغة في العصر المملوكي امتداداً لما كانَ في العصور السابقةِ. وقدِ ازدهرتْ علوم البلاغة العربية نتيجةً لأمرَيْنِ الترجمات عن الإغريق وخاصةً أرسطو، والخوض في موضوع إعجاز القرآنِ الكريمِ.

السير الشعبية:

سيرة سيف بن ذي يزن هي سيرة شعبية خيالية تروي حكاية سيف بن ذي يزن الملك اليمني الذي طرد الأحباش من اليمن.

تتناول سيرة سيف بن ذي يزن - منذ صفحاتها الأولى- الإشارة إلى أن المهمة الأولى لبطلها هي إحضار كتاب النيل، الذي هو في بلاد الأحباش. لأنه باستيلاء هؤلاء على هذا الكتاب فقد حجزوا النيل عن مصر!. ورغم أن الملك سيف هو من أواخر ملوك حمير التاريخيين في اليمن قبل الإسلام فقد استغل الراوي الشعبي دلالة صراعاته في حروب اليمنيين مع الأحباش، ليجعله رمزاً للقلق المصري في القرن الرابع .

ولم تكن السيرة عند إنشائها بعيدة عن عصر "التصارع الصليبي" بين الغرب والمنطقة؛ في إطار تلك العولمة المبكرة ، والسيرة مليئة بآفاق الإحساس بالحبش الأفارقة، وبأهل مصر المسلمين .

وفي العصرين المملوكي والعثماني ظهرت فنون شعرية جديدة ابتدعها شعراء العصرين .

ومن هذه الفنون:

أولاً : التأريخ الشعري:

اختلف مؤرّخو الأدب العربي في توقيت العصر الذي ابتُدع فيه التأريخ بالشعر اختلافاً كبيراً . فالأمير حيدر الشهابي ادّعى أنّ عبد الرحمن البهلول النحلاوي وهو أحد أبناء القرن الثاني عشر الهجري) الثامن عشر الميلادي) أوّل من اخترعه حيث قال : " وهو الذي اخترع فنّ التاريخ على حساب الجمل . لأنّنا لم نجد تأريخاً على هذا الحساب قبل عهده".

وتعتمد هذه الطريقة على حساب التاريخ تبعاً لترتيب الحروف الهجائيّة العربيّة . وهي : أبجد هوّز حطّي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ.

فكلّ حرف له قيمة عدديّة يمثّلها كالتالي :

أ = ١ ، ب = ٢ ، ج = ٣ ، د = ٤ ، هـ = ٥ ، و = ٦ ، ز = ٧ ، ح = ٨ ، ط = ٩ ،

ي = ١٠ ، ك = ٢٠ ، ل = ٣٠ ، م = ٤٠ ، ن = ٥٠ ، س = ٦٠ ، ع = ٧٠ ، ف = ٨٠

ص = ٩٠ ق = ١٠٠ ، ر = ٢٠٠ ، ش = ٣٠٠ ، ت = ٤٠٠ ، ث = ٥٠٠ ، خ = ٦٠٠ ،

ذ = ٧٠٠ ، ض = ٨٠٠ ، ظ = ٩٠٠ ، غ = ١٠٠٠.

لكن هناك شروط يجب توافرها في هذا الفنّ:

منها أن يتقدّم على ألفاظه كلمة " أرّخ " ، أو " أرّخوا " ، أو ما يدلّ على التاريخ ، وإذا تصرف الشاعر في تقديم أو تأخير أو زيادة بعد لفظة " التاريخ " أشار إليه لئلا يستغلق على القارئ . كقول بعضهم في تأريخ بستان:

يهنيك تاريخٌ أتى ضبطه (بستان بسط باهر زاخر)

فلم يحسب في التاريخ قوله : " أتى ضبطه"

وقال شاعر آخر :

(فتحنا العراق) ودا اللفظ من رشاقته جاء تاريخه

فقد قدّم كلمات التاريخ على ألفاظ البيت ، ودلّ على الألفاظ التي قصد بها التأريخ.

ومن شروط هذا الفنّ ألا يكون في بيتين ، بل في بيت واحد ، ويستحسن أن يقع في عجز البيت أو في قسم من العجز.

ومنها أنّ الحروف تحسب على صورتها دون مراعاة لفظها ، فتحسب متلاً ألف كلمة " فتى " ياء ، وتاء التأنيث المنقّطة تاء ، وغير المنقّطة هاء ، ولا يحسب المشدّد إلا حرفاً واحداً ، والهمزة التي لا كرسي لها لا تحسب شيئاً ، ويحسبون ألف الإطلاق ألفاً ، وهلمَّ جرا) .

وهذه بعض الأمثلة:

الأديب ماميه الانقشاري يؤرّخ تاريخ موت سلطان الروم السلطان سليم ابن السلطان سليمان:

فـــارق الملـــك ســـليم المجتبـــى وغدا ضيفاً على بـــاب الكـــريم

وغـــدا فـــي الشـــهداء تاريخـــه رحمـــة الله علـــى حـــي ســـليم

ولماميه الانقشاري تاريخ ابتداء سلطنة سليم نصيف هو" تولّى سليم الملك بعد سليمان"، وتولّى بعده ولده السلطان مراد ,ولنامية الانقشاري في تاريخ ذلك :

بالبخت فوق التخت أصبح جالساً ملك به رحم الإله عباده

وبه سرير الملك سرّ فأرّخوا حاز الزمان من السرور مراده

فيكون تاريخ تولّيه (حاز الزمان من السرور مراده) = ٩٨٢ هـ (١١).

ثانيا : الزجل :

الزجل في اللغة يعني الصوت . وهو فن نشأ في الأندلس في أواخر القرن الرابع الهجري حيث نشا على يد أخطل بن نمارة وبلغ عصره الذهبي على يد أبي بكر بن قزمان ت٥٥٤هـ ،واستمر يتطور في القرن السابع الهجري وجنح نحو التصوف والزهد بسبب المصائب التي أحاطت بالأندلس . وانتقل إلى المشرق ومصر قبل كل البلاد لقربها من المغرب وأول من عني به من المشارفة صفي الدين الحلي في كتابه العاطل الحالي والمرخص الغالي اذ جعله في أول الفنون الشعرية غير المعربة . وكذلك جاء ذكره في كتاب "بلوغ الأمل في فن الزجل" لتقي الدين أبو بكر بن حجة الحموي "ت٨٣٧هـ" حيث تابع الاهتمام بهذا الفن بعد صفي الدين الحلي .

ويذكر لنا صفي الدين الحلي في كتابه العاطل الحالي رأيه في مكانة هذا الفن بالنسبة إلى الفنون المستحدثة الأخرى . ومخترعوه من أهل المغرب ثم تداوله الناس بعدهم.

مكونات الزجل :

- يتألف الزجل من أربعة اشطر والمصاريع الثلاثة الأولى من روي واحد معين والرابع مغاير له .
- ويشيع الجناس في القوافي الثلاثة الأولى .
- وقد ينظم الزجل من الأقفال التي لا يزيد الواحد منها عن بيتين ويكون للصدر روي وللعجز روي أو قافية واحدة .

ويمتاز فن الزجل بما يلي :

- أنه يصلح للغناء.
- بعيد عن الإعراب.
- يغلب عليه التسكين.
- ينظم على بحور الشعر المعروفة وبحور أخرى.
- يتكون من أربعة اشطر حيث يشيع الجناس في الثلاثة الاولى .
- ينظم بشكل إقفال لا يزيد القفل الواحد منها عن بيتين ويكون للصدر روي وللعجز روي او قافية واحدة.

ولقد اشتهرت مصر بالزجل ومن أعلامه شرف الدين بن أسد ت٧٢٨هج كما ينقل لنا صاحب فوات الوفيات الجزء الثاني ،ومن أزجاله اللطيفة التي وردت قوله :

يا مالك الحسن أرفق بالمستهام العليل حياته قربك ولكن ما يلتقي له سبيل

خدام حسنك كثير هم سبحان من صورك

وصفك جميل ووجهك صبيح ما ازهرك

ياقوت وجوهر بثغر وريحان عذارك شرك

ثم انتقل الزجل إلى الشام واستساغه العامة والخاصة ونظموا فيه ومن أشهرهم شهاب الدين احمد بن عثمان الامشاطي " وعلي بن مقاتل الحموي "ت٧٦١هج" وابن حجة الحموي "ت٨٣٧هج" (١٢).

ولقد وصل الزجل إلى العراق واقبل عليه الشعراء ونظموا فيه أمثال صفي الدين الحلي في كتابه العاطل الحالي والمرخص الغالي يقول الحلي :

أنت يا قبلة الكرام زينة المال والبنين الله يعطيك

فوق ذا المقام

ويعيدك على السنين

أنت شامة بين الأنام الله يحرس شمائلك

ويؤيدك بالدوام تانعيش في فواضلك

وتا نطوي ذكر الكرام تا ننشر فضائلك

ونهنيك بكل عام

والخلائق تقول آمين

- ثالثا المواليا :

جاء في كتاب العاطل الحالي والمرخص الغالي ان ناظم هذا اللون يسمى الموالي وجمعه ألموالـه .نشا في واسط واخترعه أصحاب البرامكة بعد نكبتهم لأن هارون الرشيد حرم عليهم رثاؤهم باللغة الفصحى فراح الشعراء يرثونهم بلغة عامية وتنتهي عبارة الشعراء بكلمة "يا مواليا" فعرف بهذا الاسم .

ويتكون المواليا من:

- أربعة مصاريع متشابهه الأواخر ساكنة الروي من بحر البسيط

مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن مستفعلن فأعلن مستفعلن فعلن

أي تام البسيط أو مجزوء البسيط او مخلع البسيط فهو من وزن واحد فقط .

وفي وفيات الأعيان الجزء الأول لابن هلكان يقول :"ان البغداديين لا يتقيدون بالاعراب في المواليا ،فهم ينظمون كيفما اتفق ." (١٣)

ومن المواليا قول احد البغداديين :

ظفرت ليلة بليلى ظفرة المجنون

وقلت وافى لحظي طالع ميمون

تبسمت فأضاء اللؤلؤ المكنون

صار الدجى كالضحى فاستيقظ الوشون

ومن المعلوم ان المواليا شاع في نهاية الدولة العباسية ومن الذين نظموا فيه

- حسام الدين الحاجري الاربلي .
- ومن العراقيين مجد الدين النشابي
- وعز الدين الموصلي .
- وعلي بن إبراهيم بن معتوق الواسطي .
- وصفي الدين الحلي وغيرهم كالذي نجده عند البدر الزيتوني الذي توفي بعد القرن التاسع فقال في مدح الرسول الكريم :

يقول حسام الدين الحاجري الأربلي :

لـــم تـــدعي الـــذوق والوجـــدان والأحـــوال

وأنت خالي مـــن الاخـــلاص فـــي الاعمـــال

ارجـــع لجســـمك فســـم البـــين لـــك قتـــال

ترمـــي حجـــر مايشـــيلة خمســـميت عتـــال

وقد رغب الشاميون في المواليا وشاع بينهم ومن الذين وصلت الينا نماذج من نظمهم صلاح الدين ألصفدي وهذه المواليا لابن السويدي نقلا عن كتاب النجوم الزاهرة الجزء الثامن مثل :

البـــدر والســـعد :ذا شـــهبك وذا نجمـــك

والقـــد واللحـــظ: ذا رمحـــك وذا ســـهمك

والـــبغض والحـــب :ذا قســـمي وذا قســـمك

والمسك والحســـن : ذا خالـــك وذا عمـــك

رابعا: الكان وكان :-

جاء في كتاب (العاطل الحالي) أنه ظهر في القرن الخامس الهجري وشاع بعد ذلك ،وقد اخترعه البغداديون وسمي بالكان وكان لأنهم يقولون في حكاياتهم كان وكان للدلالة على أنها روايات لا أصل لها ولا سند .

وفن الكان وكان انتقل إلى مصر وسمي بالزكالش وأما العراقيون فيسمونه بالكان وكان ،وأما في الشام فلم يشع كثيرا .(١٤)

نماذج من فن الكان وكان :

قال شمس الدين الكوفي في كتاب الكشكول لبهاء الدين العاملي مخاطبا الغافلين عن عبادة الله تعالى :

إلى من غفل وتوانى الركب فاتك صحبته

وفي الدجى حدا بيهم الحادي وحث النوق

حث المطايا لعلك بمن تقدم تلحق

من لا يحث المطايا ما يبصر المعشوق

فناقتك تتضمخ من شدة السير بالدما

تصل إلى مواطنها مضمخه بخلوق

ياذا مطلب قد بلغت الأرب وقد زال التعب

إلـــف الفـــت فالناقـــة لهـــا عليـــك حقـــوق

يا بـــدر ثـــم تجلـــى وتـــيم الخلـــق منظـــره

جميع من فـــي العـــالم إلـــى لقـــاك مشـــوق

فبـــالنبي محمـــد وحـــق مولانـــا علـــي

مـــا تـــيم القلـــب إلا قوامـــك المشـــوق

خامسا : القوما :-

ظهر هذا الفن في بغداد في أواخر الدولة العباسية وقد اخترعه أبو بكر محمد بن عبد الغني "ابن نقطة" .

ويذكر الشاعر صفي الدين الحلي أن البغداديين قد اخترعوه في شهر رمضان وأصله قوما إلى السحور ويأتي على بحر الرمل أو الزجل حيث نظموا فيه لغزل والعتاب وقد شجعه الخليفة الناصر العباسي وأجزل العطاء للشعراء وخاصة الشاعر ابن نقطة ومن بعده ابنه .

وينظم هذا الفن المستحدث على أربعة إقفال ثلاث منها تأتي على روي واحد وقافية واحدة وهي الأول والثاني والرابع وأما القفل الثالث فأطولها وهو مهمل القافية.

ومجمـــوع الأقفـــال الأربعـــة تســـمى بيتـــا ووزنـــه مســـتفعلن فعـــلان أو فاعلان.واليك هذا القوما الذي يرويه لنا ابن حجة الحموي في كتابه بلوغ الأمل في فن الزجل والمنسوب إلى ولد صغير لابن نقطة يقول فيه"

يـــــــا ســـــــيد الســـــــادات

لـــــــك بـــــــالكرم عـــــــادات

أنـــــــا بنـــــــي ابـــــــن نقطـــــــه

وأبـــــــي تعـــــــيش أنـــــــت مـــــــات

وكان الخليفة الناصر من المعجبين بهذا القوما كما يذكر لنا ابن حجة الحموي في كتاب بلوغ الأمل في فن الزجل.

ومن القوما قول صفي الدين الحلي في الملك المؤيد إسماعيل بن علي بن محمود صاحب حماة " والمنشور في ديوان الشاعر العاطل الحالي والمرخص الغالي" حيث يقول:

لازال ســـــــعدك جديـــــــد

دايـــــــم وجـــــــدك ســـــــعيد

ولا برحـــــــت مهنـــــــا

بكـــــــل صـــــــوم وعيـــــــد

فـــــي الـــــدهر أنـــــت فريـــــد

وفـــــي صـــــفاتك وحيـــــد

فـــــالخلق شـــــعر مـــــنقح

وأنـــــت بيـــــت القصـــــيد

سادسا البند :-

فن أدبي عراقي نشا في أواخر القرن الحادي عشر الهجري ثم انتقل إلى منطقة الخليج العربي وشاع فيها مدة ثلاثة قرون كما يذكر لنا عبد الكريم الدجيلي في كتابه البند في الأدب العربي .

والبند يكتب على هيئة النثر فهو من هذه الناحية يشبه النثر ووزنه مفاعيلن مكررة وكفها جيد وحسن والكف هو حذف نون مفاعيلن فتصبح مفاعيل . ويجوز في اول التفعيلة الحزم والخرم والخرم هو حذف اول متحرك من الوتد المجموع بحيث ان مفاعيلن تصبح "قاعيلن" وأما الحزم فهو زيادة في أول التفعيلة لا يعتد بها في المقطع .ويغلب في آخر جزء منه الحذف "مفاعي"

وللبند شبه بالشعر الحر من حيث إقامة الوزن على التفعيلة دون الأشطر

ولقد اشتهر الكثيرون في نظم البند مثل شهاب الدين ابن معتوق الموسوي .

ويذكر لنا الدكتور جميل الملائكة في كتابه ميزان البند ان العراقيين ينشدون البند على إحدى طريقتين:-

الأولى / الوقوف اختيارا في مواضع القوافي حيثما يمكن الوقف لأجل الموسيقى وهذا هو الشائع في الانشاد .

الثانية / إعراب أخر الكلمات كما في التلاوة السريعة.

ولقد نظم الشاعر عبد الغفار الأخرس بندا يمدح فيه السيد سلمان بن السيد علي القادري الكيلاني "ت١٣١٥هـ" نقله لنا د .صفاء خلوصي في كتابه "علم القافية" واليك نصا منه :

"محب ذائب الدمع ،رماه البين بالصدع،بكى من حرقة الوجد، على من حفظ العهد،وخشف ناعم الخد ،مليح عبل الردف،صبيح لين الوطف ، أدار الكأس والطاس ،وحاكى الورد والأس ،لعمري منه خدا وعذارا ولقد طالت عليه حسراتي بعدما كانت قصارا فهل يرجع ما فات ، وهيهات وهيهات ،فلو تنظر أشياء نظرناها ،بأيام قضيناها بحيث ابتسم الزهر ،وقد بلله القطر " .(١٥)

الهوامش

[١] ابن منظور: لسان العرب ١٠/٤٩٣.

[٢] د. طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ص١٥، ١٦.

[٣] د. راغب السرجاني: قصة التتار ص٢١١، ٢١٢.

[٤] المصدر السابق ص٢١٤-٢١٦.

[٥] السابق نفسه ص٢١٦، ٢١٧.

[٦] قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية ص١٢٩، ١٣٠.

[٧] د. طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ص٣١-٣٤. د. راغب السرجاني: قصة التتار ص٢٢٥، ٢٢٦.

[٨] محمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي، العهد المملوكي ٧/١٥-١٧.

[٩] المقريزي: الخطط ٢/٧٠.

[١٠] د. محمود محمد الحريري: مصر في العصور الوسطى ص٢٨٧، ٢٨٨.

[١١] الأدب المملوكي. موسوعة مصر الخالدة.

[١٢] الأدب في العصر المملوكي - دراسة تفصيلية. منتدى اللغة العربية.

[١٣] النيل... وملحمة سيف بن ذي يزن. عنبسا: (٢٠١٢-٠٧-٠١).

[١٤] مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني : بكري شيخ أمين . ص ١٦٦-١٦٧.

[١٥] مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني : بكري شيخ أمين . ص ١٧٠-١٧١